

وعاظ يصدون عن سبيل الله

يروى أن ثعلبا رأى عنقود عنب ناضج يتدلى من كرمٍ يانعة، فقفز إليه مرات دون جدوى، فلما أعياه الوصول إليه، انصرف عنه يائسا وقال: "إنه على أي حال عنب حامض"، يمثل موقف هذا الثعلب حال كثير من جماهير المسلمين مع تعاليم الشرع حين يرون استحالة تحققها في واقع حياة ضاغطة ومادية لاهبة، ويتولى كبر هذه الحالة جهلةُ الوعاظ وعديمو التجربة من المربين ودعاة الخير، فهم يصدون عن سبيل الله من حيث يظنون أنهم يخدمونه ويمشّكون به.

ذلك بأنهم يميلون في المواعظ إلى الإغراب والمبالغة، وحشد المرويات الاجتماعية والأدبية دون تمحيص إسنادي ولا تربوي، و دون مراعاة لما قد تركه تلك المبالغات من أثر سلبى على المخاطب حين يقف عاجزا عن تمثيل تلك القيم المغرقة في المثالية، ويقول كما قال الثعلب: "إنه دين حامض"، فينفر من الدين الذي صُوّر له على تلك الحالة التي لا تلائم طبيعة الإنسان العادي الذي جاء الدين أصلا لإسعاده وإنقاذه.

حشد المرويات الاجتماعية والأدبية دون تمحيص إسنادي ولا تربوي، و دون مراعاة لما قد تركه تلك المبالغات من أثر سلبى على المخاطب حين يقف عاجزا عن تمثيل تلك القيم المغرقة في المثالية، ويقول كما قال الثعلب: "إنه دين حامض" وبغض النظر عن إمكانية تحقق تلك المبالغات العبادية والعادية في الواقع أو عدم إمكانية، إلا أنها تبقى حالة استثنائية وليست أصلية في الدين، ولا ينبغي أن تصور على أنها الحالة النموذجية للمسلم في الصلاة أو الصيام أو الذكر وأن غيرها تقصير وفتور.

وقد كان النبي ﷺ عارفا بطبيعة الدين الذي جاء به، وبطبيعة الإنسان الذي يخاطبه، لذلك نهى عن التنطع والمبالغة حتى في أمر الدين نفسه، فقال: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"، وأكد أيضا أن نوافل العبادات القليلة المستمرة خير عند الله من النوافل الكثيرة التي تضعف القوى البدنية لصاحبها فينقطع في آخر المطاف، "أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ".



إن الإنسان هو الإنسان بغرائزه وطباعه، وإنه لا يصلحه إلا شرع الله الذي خلقه ويعلم أسراره، شرع الله المحض الذي لا تشوبه أهواء ولا رغبات ولا اختيارات بشرية. لذلك لم يفرض الله على الناس **قيام الليل** الذي فرضه على نبيه، لأنه سبحانه يعلم الفرق الكبير بين المستوى الإيماني لأنبيائه وبين المستوى الإيماني للبشر العاديين الذين لا يجدون ذلك الفيض والمدد الروحاني من الله، وإنما ترك أمر القيام ميدانا للتنافس.

إن الوعظ بتلك المبالغات وجلد السامعين بها كل حين لا يصنع تفاؤلا ولا إيمانا في قلوب الناس، بل يأسا ونفورا من الدين الذي صُوِّرَ لهم في نماذج مثالية خيالية يرون استحالة اللحاق بها في واقع الأمر، فيذهبون في أحد كل منهما لا يؤدي للتدين في شيء، فإما تحصل عندهم قناعة بفساد أصل الدين ذاته فيكفرون أو يلحدون، وإما ينشأ عندهم نفاق يجعلهم يكذبون ويصطنعون وقارا والتزاما هم أبعد الناس منهم في خلواتهم.

ولو أن الواعظين اكتفوا في وعظهم بمنهج القرآن وتعاليم سنة النبي صلى الله عليهم وسلم وسير الراشدين المهديين من صحابته، لهرع الناس متسابقين إلى الامتثال ولزاد تدينهم وتقواهم، وما ابتلي المجتمع المسلم بشيء أفتك بأمنه وخلقته وتماسكه من تدين شكلي لا تسنده نفس سوية، إنه لبوس الضأن تحته قلوب الذئاب.

و قد أفاضت الاستبيانات والإحصائيات والتقارير في ذكر جرائم تقع خلف الجدران في مجتمعات عربية تضيق على الناس ما وشَّعه الشرع وتحملهم على أشد الأمور، فينتج عن ذلك مجتمع مزودج، ملتزم الظاهر فاسق الباطن، يمدح القيم في العلن ويجهز عليها خلف الجدران، إن **التدين** قناعة لا فقاعة، وروح سارية لا مُسوخٌ ضافية.

إن هذا الواقع التربوي المتناقض لم تصنعه ثقافة الغرب . التي نحملها كل فشلنا التربوي والفكري . بل صنعه علماء شريعة متشددون يخلطون بين هوى نفوسهم وحكم الشرع، وبين مشاكلهم العائلية الخاصة وفتاويهم الشرعية العامة

إن هذا الواقع التربوي المتناقض لم تصنعه ثقافة الغرب . التي نحملها كل فشلنا التربوي والفكري . بل صنعه علماء شريعة متشددون يخلطون بين هوى نفوسهم وحكم الشرع، وبين مشاكلهم العائلية الخاصة وفتاويهم الشرعية العامة، كما صنعه وعاظ جهلة يظنون اندهاش الناس بمبالغاتهم أثرا تربويا حميدا، وهي مجرد انفعال آتي كما ينفع للطفل وغيره بكل غريب.



ليست تلك المبالغات سوى جزء من تراث عصر الانحطاط الذي عاشته الأمة، بعد عصر صدر الإسلام، وينبغي في مسار نهضتها الجديدة أن تراجع كل تلك المرويات الوعظية ومحاكمتها إلى نصوص الشرع الصريحة الصحيحة، ومن ثم وضع خطاب وعظي إرشادي يستلهم من فترة النبوة وعصر الراشدين ففيهما غنية تربوية وذخيرة إيمانية فعالة، قادرة على إنشاء مسلم عاقل قدوة مؤثر إيجابي، لا مقلد جبري يعلق فشله وكسله وجبنه وخوره على الأقدار، التي حرر المحققون فيها قاعدة ذهبية تقول: "إنه يستدل بالأقدار في المصائب لا في المعائب"، فالعيب منا والنقص فينا، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير.